العولمة «شيوعية» أخطر

استباحة العالم بالترغيب والتهديد

. فيصل القاسم ❖ .

بضاعة قديمة بثوب جديد

«غيِّرْ إسمو وهاتو»: عبارةٌ يُطْلقها عادةً التجّارُ والسياسيون الفاسدون والمتلاعبون بوسائل الإعلام وعقول البشر عندما يريدون الترويجَ لبضاعة قديمة بإلباسها ثوبًا جديدًا. وهذا ما يفعله سادةُ العولمة الجدد مع «شيوعيّتهم» الجديدة. قد تختلف الأساليبُ والطرقُ بين الشيوعيين والرأسماليين العولميين لجعل العالم واحدًا، وخاصةً من الناحية الاقتصادية، لكنّها متشابهة في جوانب كثيرة.

فالشيوعية القديمة بصيغتها الاشتراكاوية، و«الشيوعيةُ الجديدةُ» في شكلها العولمي «التشاركي» المزعوم أيضًا، تَطْمحان إلى إزالة الحدود بين دول العالم، وإلى إشاعة أسلوب واحد من أساليب العيش والاستهلاك والتفكير. وفي حين لجأ الشيوعيون السوفيات والصينيون من أجل وصف مشروعهم السياسي إلى استخدام مصطلح commune، أيْ صهر عامة الشعب في هذا العالم في بوتقة واحدة، استَخدم العولميون الحاليون مصطلحَ «القرية الكونية» لوصف مشروعهم العالمي. والمعلوم أنّ واضعَ مصطلح «القرية الكونية» هو العالِمُ الكنديّ مارشال ماك لوهان، أستاذُ الإعلاميات السوسيولوجية في جامعة تورنتو، في نهاية عقد الستينيات. وتبنّى هذه الفكرةَ من بعده زبيجينو بريجنسكي، الذي أصبح فيما بعد مستشارًا للرئيس الأمريكي كارتر (١٩٧٧ ـ ١٩٨٠)، فأشار إلى أنّ تقدُّم أميركا يمكن أن يكون «نموذجًا كونيًّا للحداثة» يروِّج للقيم الأمريكية التي تنادي بها، في مواجهة الإيديولوجيات الاشتراكية التي تبنّاها السوفييت.

هل هناك فرق من الناحية اللغوية بين الشيوعية والعولمة؟ لا فرق أبدًا. والطريف في الأمر أنّ مؤلِّف معجم روجيه الإنجليزي الشهير كان قد آخى بين الشيوعية والعولمة لغويًا عندما وضع قاموسه الشهير Roget's Thesaurus عام ١٨٥٢ أيْ قبل حوالى قرن ونصف من ظهور مصطلح «العولمة.» فقد وضع مثلاً كلمات «شيوعي» (communal، communistic) و«عالمي» أو «عولمي» (global) في خانة واحدة. وتَدْخل ضمن التصنيف اللغوي نفسِه كلماتٌ دالّةٌ أخرى مثل «جمعي» و«جماعي» و«مشترك» و«مشارك» و«تشاركي» و«تعاوني» و«دولي» و«عام» و«منخرط في المجموع» ـ وكلُّها مفرداتٌ شارحةٌ لمفهوم العولمة بصيغتها الحالية. فالعولمة، كالشيوعية السوڤياتية، تَسْعى جاهدةً إلى تحويل المعمورة بثقافاتها وأساليب عيشها وعقائدها السياسية وحتى الدينية إلى عالم واحد. الفرق الوحيد أنّ السوفيات كانوا يريدون ذلك على طريقتهم الاشتراكية، أما الأميركان فهم يريدونه على طريقتهم الرأسمالية.

كان الصراع بين الشيوعية والرأسمالية على مدى القرن العشرين عبارةً عن صراع على النفوذ لا أكثر ولا أقلّ؛ فلقد كان كلٌّ من الطرفين يتسابق على نشر عولمته قبل الآخر كي يسيطر على المعمورة. صحيح أنّهما اتفقا بعد الحرب العالمية الثانية على تقاسم مناطق النفوذ، إلاّ أنّهما كانا يسعيان دائمًا إلى سحب البساط واحدهما من تحت الآخر باستمالة هذا البلد أو ذاك إلى معسكرهما. وقد لاحظْنا كيف انتقلتْ بعضُ البلدان من تحت التأثير السوفياتي إلى تحت التأثير الأميركي، كما حدث في مصر أيام السادات عندما طَرَدَ الخبراءَ الروس وبدأ يغازل الأميركان حتى انتهى به الأمرُ إلى توقيع معاهدة كامب ديڤيد. لقد كان الصراع بين السوفيات والأميركان بمجمله على قلوب البشرية وعقولها، وكلما زاد عددُ البلدان المنضوية تحت اللواء الشيوعي أو الرأسمالي كان ذلك بمثابة تقدُّم على طريق تعميم الشيوعية أو العولمة على العالم... لا فرق.

لقد كانت الشيوعية تعادي الديموقراطية والتعددية الفكرية والاقتصادية

❖ ـ إعلامي عربي. مقدِّم برنامج «الاتجاه المعاكس» في قناة الجزيرة.

والاجتماعية وحتى الفنية. ولعلّنا نتذكّر ما فعله وزيرُ الثقافة السوفياتي الشهير زادانوف مع المثــقـــفين والمفكّرين الخارجين عن السّرب؛ وما فعله أيضًا الزعيمُ الصيني ماو تسي تونغ بعد ثورته «الثقافية» الشهيرة حيث تظاهَرَ بالانفتاح والديموقراطية، طامحًا من وراء ذلك إلى أن يَنْصب فخًا للخارجين على خطه السياسي بحيث يعبِّرون عن أفكارهم ومن ثم يقوم هو بزجّهم في السجون! لقد كانت الشيوعية ديكتاتوريةً شموليةً صارمة في كل مجالات الحياة. ولكنْ أيختلف الوضعُ الآن في ظلِّ ما يسمى بـ «العولمة»؟

لا. فالعولمة، كالشيوعية، تريد أن تضع العالم في قالب واحد، رغم تشدُّقها بالديموقراطية والليبرالية والتعددية. إذ بعد انتصار الرأسمالية الغربية على الشيوعية السوفياتية راحت الأولى تعمِّم استراتيجياتها ونظرياتها الاقتصادية على كل دول العالم، مستخدمةً أذرعَها الاقتصاديةَ الجبّارة كصندوق النقد الدولي والبنك الدولي اللذيْن وصفهما المفكّر البريطاني اليساري توني بَنْ بأنّهما أعتى مؤسستيْن ديكتاتوريتيْن في التاريخ تُستخدمان لابتزاز الدول وإرهابها. فقد فَرَضت الرأسماليةُ الغربيةُ الكثيرَ من الوصفات الاقتصادية على العديد من بلدان العالم، الأمرُ الذي أَضَرّ باقتصادياتها ودَفَعَ ببعضها إلى حافة الإفلاس والانهيار. لقد أصبح ممنوعًا أن تفكِّر أيُّ دولة بانتهاج خط اقتصادي غير رأسمالي، لأنّ مِنْ شأن أيّ توجّه مخالف أن يعرقل خطوات العولمة المتمثلة في إسقاط الحدود التجارية والاقتصادية بين الدول وفتح الأسواق أمام الشركات العابرة للقارات التي أصبحتْ حاكمةً بأمرها إلى حدّ أنّ بعضَها يَمْتلك ميزانياتٍ وأصولاً تَفُوق ما تمتلكه دولٌ كبيرة: فميزانية شركة «شل» للنفط مثلاً تقارب ميزانيةَ كلّ دول الخليج النفطية مجتمعةً؛ وشركة فورد الأميركية للسيارات أقوى اقتصاديًا من دولة جنوب أفريقيا القوية! لا عجب أن تحدّث البعضُ، إذن، عن «شيوعية رأس المال» بشكلها البشع جدًا الذي تغلغل في العالم وانتشر انتشارَ النار في الهشيم.

هل لاحظتم مثلاً ما حدث للسودان وإيران وليبيا والعراق وسوريا وكوريا الشمالية وغيرها من الدول التي حاولتْ أن تَنْتهج خطًا اقتصاديًا خاصًا بها، بغضِّ النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا معه؟ لقد تمّ عزلُها اقتصاديًا، وحوصرتْ حتى تعود إلى السراط العولمي «المستقيم.» وهو فعلاً مستقيم لا يَسْمح بأن تَلَفّ يمينًا أو شمالاً، تمامًا كالخط الشيوعي البائد. أما التجارب الاقتصادية المختلفة **نسبيًا** عن الرأسمالية بشكلها الغربي المتوحش فهي ليست مختلفة فعلاً بل يمكن أن نسمِّيها بالإنجليزية: «variations on a theme،» أيْ أشكالاً مختلفةً لموضوع واحد.

وما ينطبق على الاقتصاد ينطبق على السياسة. فكلّ مَنْ يعارض أميركا ومصالحَها خارجٌ عن السرب ولا بدّ من تصفيته، كما حَدَثَ لصدّام وميلوسوڤيتش وما يَحْدث لكاسترو وغيره ممن يحاول الانتفاضَ على الخط الأميركي بأمر من «سادة العالم الجدد،» كما يسمّيهم الصحفي الأسترالي العظيم جون پيلجر. ولو اقتصر الأمرُ على النواحي السياسية والاقتصادية لقلنا «ماشي الحال،» لكنّ مخالب العولمة بدأتْ تطاول ما هو أخطر وأكثر حساسيةً بالنسبة إلى شعوب العالم: فقد بدأتْ تضرب الأمَمَ والشعوبَ في صميم حضاراتها وجوهر عقائدها الروحية بشكلٍ يَفُوق الهجمةَ الشيوعيةَ السوفياتية.

لقد كانت الشيوعية دائمًا عدوًا لدودًا للتنوع الوطني والقومي. وقد لاحظنا كيف صَهَرَ السوفياتُ قومياتٍ كثيرةً قسريًا، لكنّها ما لبثتْ أن استعادتْ شعورَها القومي بعد انهيار الإمبراطورية الشيوعية. وكذلك الأمر الآن بالنسبة إلى العولمة الجديدة، التي تهدف إلى أمركة العالم أو تغريبه بطرق مختلفة وصهره على طريقتها. حتى الدِّين لا يَسْلم من سهام العولمة أو «الشيوعية الجديدة»: فكما كان الشيوعيون السوفيات يحاربون كلَّ أشكال التديُّن ويعتبرون الدينَ أفيونَ الشعوب كما وصفه ماركس، فإنَّ العولميين الجدد قد لا

الحملة على الإسلام هي في صلب الاستراتيجية العولمية لتذويب العقائد كي تنخرط جميعها تحت اللواء الأميركي

يختلفون كثيرًا بالرغم من ليبراليتهم المزعومة. وثمة حملة مسعورة لا تخفى على أحد، تشنُّها أميركا على الدين الإسلامي وعلى كل دين يسعى إلى أن يكون مؤثِّرًا في حياة الشعوب. فما دام الدين عبارةً عن طقوس موسمية فلا بأس؛ أمّا أن يحاول أن يكون فعّالاً فهذا مرفوض تمامًا، ومن ثمّ يجب وضعُ استراتيجيات صارمة لقصّ أجنحته وملاحقته والتضييق عليه كما يحدث مع الإسلاميين في كل مكان. ولعلّ تغيير المناهج الإسلامية ومواءمتها مع العولمة شكلٌ من أشكال محاربة التدين في العالم. وكم هو ساذج مَنْ يعتقد أنّ الحملة على الإسلام جاءت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. لا. إنها في **صلب** الاستراتيجية العولية الهادفة إلى تذويب العقائد القومية والروحية كي تنخرط جميعُها تحت اللواء الأميركي أو الغربي عمومًا كما فعل الشيوعيون السوفيات من قبل... وفشلوا طبعًا؛ ذلك أنّ التميز القومي والعرقي والروحي لا تستطيع العولمةُ الشيوعية ولا العولمةُ الأميركية محوَه مهما حاولتا ـ فلو شاء اللهُ لخَلَقنا أمةً واحدة، لكنّه جَعَلنا ﴿شعوبًا وقبائل﴾.

آليات العولمة الجديدة

تتمثّل آليات العولمة الجديدة لإلغاء القوميات والحضارات المختلفة في وسائل الإعلام العابرة للقارات، كالأقمار الصناعية والفضائيات والإنترنت بالدرجة الأولى. إنها السماء المفتوحة، أو ما سمّاه نائبُ الرئيس الأمريكي السابق آل غور «السوبر هاي واي.» وعلى كلّ مَنْ يريد أن يعيش في هذا العالم أن يسلك ذلك الطريقَ ولا شيء غيره. وكما كانت الكتلةُ الاشتراكيةُ تَدْفع المليارات على منشوراتها ومراكزها الشيوعية، كـ «دار التقدم» الروسية الشهيرة، لترويج توجُّهاتها في العالم، فإنّ العوليين الجدد ابتكروا طرقًا أقوى وأنجعَ وأخطرَ لنشر «شيوعيتهم الجديدة.» قد يقول قائل إنّ وسائل النشر والاتصال الإلكتروني والفضائي لا تسير باتجاه واحد بل في اتجاهات عدة ليتفاعل العالمُ بعضُه مع بعض؛ وهذا صحيح إلى حدّ بسيط : ذلك لأنّ الجهة المسيطرة على الفضاء العالمي إعلاميًا هي أميركا بشكل خاصّ، والعالمُ الرأسمالي بشكل عامّ. هل تعلمون أنّ أميركا تسيطر على أكثر من خمسة وسبعين بالمائة من الإنترنت في العالم؟ لا بل إنّ مفتاح الانترنت نفسه موجود في يد أميركا، وبإمكانها أن تغلق الانترنت في العالم بكبسة زرّ موجودة في إحدى الحاملات الأميركية العملاقة التي تجوب البحار.

كما أنّ أميركا وبعضَ الدوائر الغربية السائرة في فلكها لا تتسامح مع مَنْ يحاول منافستَها على الساحة الإعلامية. ولعلّنا نتذكر أنّ الطائرات الأميركية قَصَفتْ مكتبيْ قناة «الجزيرة» في أفغانستان والعراق عندما رأت الإدارةُ الأميركيةُ في هذه القناة العربية منافسًا لها على عقول سكان المعمورة وقلوبهم. وما فتئتْ أميركا تَضْغط على وسائل الإعلام الأجنبية التي تنافس وسائلَها. ولا تغرّنّكَ شعاراتُ الحرية والليبرالية التي يتشدّق بها سادةُ العالم الجدد؛ فهي أيضًا لذرّ الرماد في العيون. وكم أُصبتُ بخيبة أمل وصدمة كبرى عندما سمعتُ رئيسَ تحرير صحيفة غربية كبيرًا يطالب الأميركيين بضرب مكاتب القنوات الفضائية الأجنبية التي لا تساير الخطَّ الغربي!

يقول الصحفي والكاتب الأمريكي توماس فريدمان:

«في هذه المرحلة يمكن الاستعاضةُ عن قول العولمة بقول الأمركة. هناك الكثيرُ من الصواب في ذلك، لأنّ نظام العولمة في الوقت الحاضر يَحْمل في طيّاته هيمنةً ثقافيةً أميركية. لكنّ ذلك سيتغير؛ ففي سبع سنوات ستكون اللغةُ الصينيةُ هي اللغةَ الأوسع استعمالاً بين اللغات في شبكة الإنترنت. وكلّما اتّسع نطاقُ عملية العولمة وشَمَل العالمَ برمته، ضاقت دائرةُ الأمركة، واتسعت بالمقابل دائرةُ العولمة الكونية. لماذا أقول هذا؟ لنسألْ: ما هو صنفُ الطعام الأكثر شعبيةً في العالم اليوم؟ إنّه ليس شرائح بيغ ماك؛ بل البيتزا. ولنتمعّنْ قليلاً في ذلك. ما هي البيتزا؟ إنها قطعة خبز يضع عليها كلُّ شعب، حسب ثقافته، ما يحبّه من

إضـافـات، كلٌّ على طريقـتـه. الهنود يضعون بيتزا بصَلْصَة الكَرِي، اليابانيون بالسـوشي، وفي الدوحـة بلحم الغنم، وهكذا دواليك. لذا أعتبر الانترنت بالنسبة إلى العالم مثلَ قطعة خبز البيتزا، يضع كلُّ شعب عليـهـا مـا يفضّله من توابل وإضافاتٍ خاصةٍ به. إذن، اليوم العولمة تساوي الأمركة، لكنْ بعد عشر سنوات لا أظن ذلك، بل ستساوي الكونية.»

غير أنّ كلام فريدمان هذا ليس إلاّ لذرّ الرماد في العـيـون. فلغـة الانتـرنت المسيطرة والمرشّحة لمزيد من السيطرة هي الإنجليزية، لغـةُ العـالم الذي يقود ويَنْشر «الشيوعيةَ الجديدة.» ولا يكاد نصيبُ الصين من مصادر المعلومات ومواقع الانترنت يساوي جزءًا يسيرًا مما تمتلكه أميركـا والغربُ عمومًا. وحتى شركاتُ المأكولات العابرة للقارات يسيطر عليها الغربُ إلى حدّ كبير، وإنْ تنوّعتْ مأكولاتُها. ثم هل نسي فريدمان أنّ قطعة البيتزا التي يتحدث عنها هي مُنتَجٌ غربي، وبالتالي ينطبق عليها قول «variations on a theme» هي أيضًـا، أيْ تنويعـات على الأصل الذي هو غربي؟ ومن ثم فإنّ العولمة هي أخطرُ على العالم ـ من حيث التأثير والتمدد ـ من الشيوعيـة السوفيـاتية المندثرة، خاصةً وأنّه ليس هناك نموذج سياسي أو اقتصادي أو ثقافي قوي يستطيع منافستَها والحدَّ من جموحها. فعلى الأقل كانت هناك أيامَ الحرب الباردة قـوةٌ مماثلةٌ متـمـثلةٌ في المعـسكر الرأسمالي الغربي تستطيع أن تحدّ من جموح الأممية الشيوعية وتشكّل رادعًا لتمدُّدها وسيطرتها على العالم. أما الآن فليس هناك أيُّ قوة في هذا العالم لها القدرةُ على مجرّد توجيه انتقاد للمارد الأميركي الذي يقود العولمةَ ويفرضها، فما بالك أن تردعه نوويًا وثقافيًا؟!

باختـصـار، لا يُمْكن بأيّ حـال من الأحوال مقارنةُ التأثير الإعلامي الذي كان لدى الشيوعية بالتأثير الموجود حـاليًا لدى العوليين الجدد. فـهـؤلاء مسلّحون بأقوى ما توصّل إليه العقلُ البـشـري في تكنولوجيا المعلومات والاتصال. فأقمارهم الصناعية تَجُوب سموات العالم من أقصاه إلى أقصاه على مدار الساعـة، موفِّـرةً لهم كلَّ وسائل الاتصال والرصد الحديثـة الخارقة للحدود، وعلى رأسها شبكةُ الانتـرنت. زدْ على ذلك طبعًـا البثَّ الفضائي الذي أصبح سهلاً جدًا بفضل الأقمار الصناعية؛ فبينما كان الناس أيامَ الحرب الباردة يتابعون الأخبار عَبر أجهزة ترانزيستور تبثّ على موجات قصيرة تكاد لا تُسمع ولا يشاهدون سوى قنواتهم الأرضيـة المحليـة، غـدوا اليـوم قـادرين على مشاهدة مئات الفضائيات الأجنبية وفي مقدِّمتها تلك التي تبثّ من الغرب، حاملِ مشعل العولمة. ولا ننسى تقنية الاتصال اللاسلكي التي اختصرت المسافات وغدت هي أيضًا في متناول الملايين، الأمر الذي يجعل مهمةَ صهر العالم في قالب واحد أسهلَ بكثير.

وبينما كان الاتحاد السوفياتي الساعي إلى فرض نموذجه الشيـوعي على أصقاع المعمورة يعاني أزمةَ اللغة، إذ لم تكن اللغةُ الروسية لغةً عالمية، فإنّ ما يجعل العولمةَ الجديدةَ أكثرَ قدرةً على نشر إنجيلها هو اللغة الإنجليزية التي أصبحتْ لغـةَ الاقتصاد والتجارة والإعلام وحتى السياسة في العصر الحديث. وبينما كـان السوفـيـات مضطرين إلى مخاطبة الدول التابعة لهم في العالم بغير اللغة الروسية، أو بالأحرى بلغة أعدائهم الإنجليزية، فإنّ الأميركيين يخاطبون العالم الآن بلغتهم الأمريكية الوطنية المحلية التي أصبحتْ بدورها لغـةَ العـولمة من الصين إلى هاواي ومن طنجة إلى جاكرتا.

أضفْ أنّ الأممية الشيـوعيـة لم تكن تمتلك العنصرَ الأهمّ لفرض أجندتها على العالم، وأعني الشركات العابرة للقـارات، أو بالأحـرى الاقـتـصـاد التشابكي الذي يتغلغل في العالم من أقصاه إلى أقصاه. فالسوفيات لم يركّزوا كثيرًا على الجانب الاقتصادي في مـشـروعـهـم الأممي؛ وبدلاً من الاستثمار في الدول السائرة في فلكهم وربطها باقتصادهم لتحقيق الشبكة الاقتصادية الدولية، كانوا ساذجين في نظرتهم إلى القوة الاقتصادية ومدى

هل تَعْلمون أنَّ أميركا تسيطر على أكثر من ٧٥٪ من الانترنت في العالم، وأنَّ بإمكانها أن تغلقه بكبسة زر؟

تأثيرها في خلق عالم واحد يعتمد بعضُه على بعض ويتأثر بالعوامل الاقتصادية المتبادلة. وأما الأميركيون فقد جعلوا من الاقتصاد العالمي ما يُشْبه البنيانَ المرصوصَ أو الجسدَ البشري الذي إذا أصيب فيه عضوٌ تداعى له سائرُ الأعضاء بالسهر والحمى. وهناك مقولة اقتصادية مفادُها إذا عطس الاقتصادُ الأميركي أصيب الاقتصادُ الأوروبي أولاً والعالميُّ ثانيًا بالزكام!

الأخطر في العولمة الأميركية أنّ السوفيات لم يكن لديهم نموذج قومي في الثقافة يريدون تعميمَه على العالم، وذلك بسبب عدم إيمانهم بالفكر القومي والنزعات القومية أصلاً، وبسبب سعيهم إلى إقامة الأممية الدولية. أما الولايات المتحدة (والبلدان الغربية عمومًا) فشديدة الاعتزاز بقوميتها بشقَّيْها الثقافي والديني، وتَعتبر نفسَها في حالة عداء مع الحضارات الأخرى التي تجتاحها تحت زعم العولمة. وقد ظَهَرَ ذلك جليًا في أطروحة المفكّر الأمريكي صامويل هنتنغتون حول صراع الحضارات، الذي اعتَبَرَ أنّ الصراع القادم سيكون بين الحضارة المسيحية الغربية والحضارة الإسلامية والكونفوشية. وبالتالي فإنّ أساليب العولمة الغربية لفرض هيمنتها وحضارتها ستكون أعتى وأشرسَ بعشرات المرات من الأدوات التي استخدمتها الشيوعيةُ السوفياتية بسبب انعدام التحدي القومي لدى الأخيرة.

السطوة ستزداد

إنّ هذه المزايا الإعلامية واللغوية والاقتصادية الجديدة التي يتمتّع بها العولميون الجدد ستجعلهم أكثرَ سطوةً ووطأةً على العالم من الشيوعيين. بل إنّ السوفيات كانوا يقدّمون مساعدات بالمليارات للدول الفقيرة مقابلَ اللحاق بالركب الشيوعي؛ وأما العولمة الأميركية فهي تُحرق الأخضر واليابس، وتدمِّر دولاً ومجتمعات وحضارات من أجل مصالحها الخاصة، وليست مضطرة إلى أن تغري أحدًا. وبينما استطاع الشيوعيون القدامى انتشالَ بعض الدول التي سارت في ركبهم من قاع التخلف والفقر، نجد أنّ العولمة الأميركية لا تَنْشر غيرَ القتل والفقر والخراب والدمار في أميركا اللاتينية والشرق الأوسط بلا رادع. ثم إنّ الشيوعيين لم يسعوا من خلال فرض نموذجهم على العالم إلى استغلال الشعوب ونهب خيراتهم، بل إلى تحقيق نوع من العدالة الاجتماعية، نجحوا أَمْ لم ينجحوا؛ بينما يجاهد العولميون الجدد في استباحة العالم اقتصاديًا وثقافيًا تحت دعاوى السوق العالمية الواحدة والقرية الكونية، إلى حدّ أنّ جيرمي بريتشر أحد الخبراء الاقتصاديين وضع كتابًا تحت عنوان **القرية الكونية أَم النهبُ الكوني**؟ فَضَحَ فيه الجشعَ الأميركي الذي أطلقتْه العولمة وزدات في نهمه وجعلته كأخطبوط يَضْرب شرقًا وغربًا شمالاً وجنوبًا مدعومًا بقوة عسكرية عَزَّ نظيرُها في التاريخ.

قد يقول قائل إنّ السوفيات بدورهم سبق أن أَرْعبوا العالمَ بقوتهم العسكرية الضاربة، وقد غزوا أفغانستان عسكريًا لتحقيق أهداف عولية كتلك التي تَنْشدها أميركا حاليًا؛ لا بل إنّ الأمريكيين ساعدوا بعضَ الدول على التخلص من السطوة السوفياتية. لكنّ أميركا لم تساعد الأفغانَ في التحرر من الاحتلال السوفياتي من أجل عيون الأفغان بل لأنها كانت تريد أن تحلّ محلّ السوفيات لا أكثر ولا أقل، وقد شاهدْنا كيف عادت واحتلت أفغانستان قبل فترة بحجة أنها تؤوي أسامة بن لادن، مع العلم أنّ الهدف أكبر وأبعد من ذلك بألف مرة وله علاقة مباشرة بمشروع السيطرة الأميركية الاستعمارية العولية على خطوط النفط في العالم. ولم يُعْرف عن سادة العولمة الشيوعية أنّهم غزوا غيرَ أفغانستان عسكريًا من أجل تحقيق وتوسيع رقعة عولتهم الشيوعية، إلاّ إذا اعتبرْنا اجتياحَهم لتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ والقضاء على «ربيع براغ» غزوًا. أما العولميون الجدد فهم يستبيحون العالم من أقصاه إلى أقصاه عسكريًا بخفة لم يَشْهد لها التاريخُ مثيلاً إلا أيام التتر والمغول والاستعمار الوحشي، إلى حدّ أنّ لأميركا أكثرَ من خمس وأربعين

قـاعـدة عـسكرية على تخـوم الصين، ناهيك عن مـئـات القـواعـد العـسكرية الأخـرى في أوروبا والشـرق الأوسط وأميركا اللاتينية وآسيا وأفريقيا. فكلّ بلد يسـتعصي على عولمتـها القسـرية الآن يصـبح هـدفًـا مـشـروعًـا للغـزو والتطويع تحت دعاوى باطلة وسـخـيـفـة لعلّ أكثرَها فجاجةً «حمايةُ الأقليات» و«حــقــوق الإنســان» و«اجــتــثــاث الديكتاتوريات» و«تطبيق الديموقراطية» ـ والعــراق خــيــر مــثــال على تلك الشعارات العولمية المزعومة. فلقد أصبح مطلوبًا من الجـمـيع شـرقـا وغـربًا أن ينضووا تحت عباءة العولمة بالترغيب أو التــهــديد، ولولا قــيــام الصين بتنويع اقتصادها وتحويل بعضه إلى اقتصاد شـبـه رأسـمـالي عـولمي لكانت الآن في ظلام مبين.

خاتمة

وبعد، هل ترون فروقًا كثيرةً بين الأممية التي كـانت تَطْمح إلى إقـامـتـها الكتلةُ الشـيـوعـيـة المنهارة، والعولمةِ الجـديدةِ التي تحاول فرضَـها أميركا وأعوانُها الغربيون؟ نعم هناك فرق كبير، وهو أنَّ العـولمة الأمـيـركـيـة بما توفَّـر لهـا من استفرادٍ بالعالم، إضافةً إلى عوامل قوة مـتنوعـة جـديدة، غـدت أخطرَ وأعـتى عشرات المرات من الشيوعية السوفياتية والصـينية التي كـانت تسـعى إلى صبّ العالم في قالب واحد. لكنْ أن تنجح أو لا تنجح فـهـذا سـؤال آخـر، ربما نجـد جوابًا لـه في الحضارات التي سادت... ثم بادت!

قطر